العالم فى عالم نجيب محفوظ

د. وفاء إبراهيم (*)

إن الاحتفال بعيد ميلاد واحد من المفكرين هو احتفال بالعطاء الفكرى ذاته واستجلاء لجوانب منه والوقوف عند البعض منها ونصبها شمعات فى كعكة عيد الميلاد.. وشمعاتُ مفكرنا الكبير الذى تجتمع اليوم على الاحتفال بواحدٍ من أعياد ميلاده التى ندعو له بالزيادة فى تعدادها استزادة من تيار الفكر السارى فيها ـ هى شمعاتُ كُثُرُ متنوعات: فيها الفلسفة والسياسة والأدب انعكست أضواؤها فى أعمالٍ جاءتْ بمثابة المجالى والتجليات لفكر هذا المفكر الجليل.(**)

لايأذن لى المقام لضيق وقته وازدحامه بالمشاركين من أحباء مفكرنا الكبير وتلامذته والمقرين بقدره والمعترفين بفضله ـ إلا بالوقوف عند مجلى واحد من مجالى وجوده الفكرى الثر فكان لابد من اختيار يسترشد بما يدخل فى دائرة فهمى وتخصصى الأكاديمى فكان فكرهُ النقدى فى الأدب أقرب شىء من فكره العميق إلى فكر الدارس الآخذ المتلقى.. وكان ما أودعه من تأملات فى عالم نجيب محفوظ ـ فى الكتاب الذى يحمل العنوان نفسه ـ باعثا لى على النظر فى جانب الفكر النقدى الأدبى لمفكرنا الجليل.. وكم كان اعتزازى بهذا الكتاب عظيماً لما وجدتُ من متعة ونفع وأنا بصدد دراستى لفكرة الوعى بالتاريخ فى أدب نجيب محفوظ وإنى لأستأذن جمعكمُ الكريم ومفكرنا الكبير فى أن أقدّم الأستاذ

(*) كلية البنات جامعة عين شمس.

(**) من دواعى فخرى واعتزازى حقاً أن أكون ضمن هذا الجمع الكريم الوفى الذى يلتقى اليوم لتكريم مفكر من الأفذاذ النابهين الذين تعتز بهم مصر وتفخر.

محمود أمين العالم من هذا المجلى النقدى الأدبى مبرزة بعض المعالم الرئيسة بما قدَّمه فى هذا الكتاب من رؤية نقدية أدبية:

أولاً: كلية الفكر

على الرغم من أن مفكرنا الكبير قد نوّه إلى وجود ثلاث مراحل فى المسيرة الفكرية لأدب نجيب محفوظ، هى المرحلةُ التاريخية، والمرحلةُ الاجتماعية والمرحلة الفلسفية؛ فإنه ينُبهنا إلى أن هذا التقسيم اعتبارى تلجأ إليه لدواعى التحليل والتجزىء النظرى.. أما واقع الأمر وحقيقته ـ لمن تجاوز ظاهر الوقائع وسطح الأحداث ـ فهو أن هذه الأقسام تتداخل وتنصهر فى سبيكة واحدة يتحول التاريخُ داخلها إلى زمانية عامة تتجلى على صفحتها مسيرةُ الواقع الاجتماعى بما تنطوى عليه وتسترشد به من فكرات فلسفية.. ويؤكد أستاذُنا الجليل أن هذه الوحدة الجامعة للتاريخ والاجتماع والفلسفة فى منظومة واحدة داخل أدب نجيب محفوظ هى البنية الأساسية التحتية التى يتأسس عليها كلُ عمل نجيب محفوظ، وهو المدخل الواجب لعالم نجيب محفوظ.

ولعل هذا أفادنى كثيراً عندما اخترت «الباقى من الزمن ساعة» فهى رواية صنفتها على أنها تعبر عن فكرة التاريخ أو حركة التاريخ كصيرورة ومخاض، ولكنها فى الوقت نفسه هى رواية تتبع الموقف السياسى والاجتماعى والأخلاقى جميعاً لأسرة مصرية واحدة عبر ثلاثة أجيال وعلى شريحة زمنية تمتد من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٨٠.

ثانياً: وحدة الشكل والمضمون

وقد رأى أستاذنا الجليل أن الوحدة الفكرية للتاريخ والمجتمع والتحليل الفلسفى القائمة فى عمل نجيب محفوظ قد تمخضت عن وحدة أخرى هى ـ هذه المرة ـ من نوع فنى.. فإن مقومات الوحدة الفكرية كانت وراء ذلك العمق فى تحليل وتعليل الوقائع والشخوص والزمان والمكان واللغة وغير ذلك من مقومات العمل الفنى حتى أفضى ذلك العمق أو التعمق إلى غياب الفواصل أو التمييزات النظرية بين «شكل» و«مضمون» فى عالم نجيب محفوظ الأدبى.. فلقد أدى نجيب محفوظ إلى نسق من علاقات «صورية» فلسفية سابحة فى الزمانية التى هى كل التاريخ الفلسفى لكل الواقع.. وهكذا يتحول المضمونُ إلى شكل أو المادة إلى صورة.. وفى ظل هذا المضمونِ ـ الشكل تكتسب اللغةُ فى أدب نجيب محفوظ

مكانة خاصة وأهميةً كبرى فهى المرآة العاكسة لوحدة الشكل والمضمون؛ لذا فقد جاءت لغة رصينة مُحدَّدة الملامح جيدة التصوير واضحة العلاقات والدلالات، تفُصح بفُصاحها عن وحدة الشكل والمضمون فيها ومن ثم فى العمل كله. وأقرب مثال يوضح ذلك المعنى يوضحه الأستاذ محمود من خلال روايتى «بداية ونهاية» و«الثلاثية».

يقول الأستاذ محمود: إن التخطيط والمعمار الفنى نفسه بين الأحداث والشخصيات يصبح هنا أداة للتعبير عما يريد أن يقوله نجيب محفوظ: فبدلاً من أن يعبر بالسرد القصصى أو الحوار، أو التعليق أو التفسير، يعبر بالبناء، يعبر بالتركيب، يتكلم بالعلاقات، يتكلم بالمقابلة والتوازى والتناقض والالتحام والتنافر بين الأحداث والشخصيات خلال حركة توزيع الفصول المختلفة.

وفى الواقع أعطى الأستاذ محمود وصفاً تفصلياً رائعاً يكشف دينامية الشكل نتيجة حيوية المضمون وفاعلية المضمون، فهما معاً يرقصُان رقصة «الفكر الجميل» فهو مثلاً فى نهاية وبداية يقول: إن التوازى بين مسلك نفيسة ومسلك حسن، والتناقض بين مسلك حسن ومسلك حسين، والنهاية الفاجعة التى ينتهى إليها كل من حسين وحسن ونفيسه يعبر بالتخطيط المعمارى عن معنى مشترك؛ إنه التفسخ والفشل والانتحار، ثمرة الطموح والدمامة والأنانية واليأس وانعدام الأب فى مجتمع متناحر لايرحم، وفى الثلاثية أقف عند وصفه البارع لتداخل الشكل بالمضمون ولكنه غير مكتمل ولا أعلم الأسباب، وأطالب أستاذنا الآن أن يبوح بها، وصفه لموقف زيارة أمينة لسيدنا الحسين وطردها من المنزل، فهو يقول إن هذا التناقض بين مسلك السيد فى بيته ومسلكه خارج البيت هذا التناقض بين مدلول زيارة أمينة الدينى، وموقف زوجها من هذه الزيارة باعتبارها تعبيراً عن تمرد على سلطانه، هذا الإحساس بالرهبة التى شملت الأسرة كلها، نتيجة لمعرفة سر الزيارة، كل هذا ـ كما ذكرت الكلام للأستاذ محمود ـ يشكل موقفا زاخراً بالمتناقضات زاخراً بالدالات المختلفة النفسية منها والاجتماعية وليس هذا بالطبع مجال تحليلها. المهم أن البناء العام لحركة الأحداث عنصر فعال فى تفجير معانيها الأساسية.

ثالثاً: النقد

وقد لاحظ أستاذُنا الجليل أن هذا الطابع التوحيدى فى فكر وأدب نجيب محفوظ قد هيأ له أمرين:

الأول: أن يجمع الاستقطابات والتناقضات فى وحدة جمالية هى وحدة الكثرة فى

قلب الوحدة؛ وهذه الوحـدة المتكثرة أو الكثرة المتوحدة فـوق كونها مطلباً جـمالياً فى الفن تجعل خريطة العـمل الفنى واضحة المعالم، فيكون الحـاصل للعمل الفنى ـ من ذلك كله ـ جمالاً مع وضوح وعمق وبساطه.

والثانى: أن الوحـدة الجامعة للكثـرة قد هيأت جـواً يحرض التناقضات على التـفاعل الذى جاء على يد نجيب محفوظ حراً وتلقائياً وعنيـفاً وعميقاً؛ فتأتى له من ذلك قدرةٌ على نقد الواقع وتشخـيص الأدواء والإلهام بالدواء.. لذلك جاءت أعمـال نجيب كلها تعمـيقا للواقع ولم تكن تحليقـا فوقه قط.. كـما جاءت أعمـاله مواجهةً للواقع ومطاردةً واعـية له والوقوف به أمام محـاكمة النقد والقيم والتاريخ والفكر الإنسانى، لذا جـاءت أعمال نجيب محفوظ وثائق تاريخية على حركة العصر وشهادة عليه ورؤية واعية له وتنبواً ملهما بمستقبله القادم.. ولقد رسم الأستاذ مـحمود لوحة دقيقة التفاصـيل لهذا المعنى الذى يقصده نجيب محفوظ، فتـاريخ مصر يتصارع فيه التـراث مع الواقع الجديد، والتراث ينكشف من خلال سلطة الفرعون أو السلطة الدينية أو الحارة رمز التـقاليد وهذا كله يظهر فى الرواية التاريخية عبث الأقـدار، ثم الاجتمـاعية الثلاثيـة وزقاق المدق والحرافـيش والفلسفيـة أولاد حارتنا، والجديد ثورة وعلم، وفـن، وأيضاً حب كل ما يعـمل على التغـيير ويدخل فى صـراع ما يناقضه ويخرج المركب لهما مستقبل جديد.. هل حدث ذلك؟ أسأل الأستاذ محمود؟

على أيه حال أبان لنا أستاذنا المفكر محمود أمـين العالم القضية المحورية التى دار حولها أدب نجيب مـحفـوظ، ودار حولهـا فكر رواد النهضـة ومازال يدور حـولها الحـوار الأصالة والمعاصرة، التراث والتجـديد، الخصوصية والكونية كل ما فى الأمر أن نجـيب ناقش القضية من خلال مـضمـون فنى وشكل جمـالى يصور الأفكار وهى تتـحرك، تتصـارع، تتناقض، تتوحد، تختبر، تصمت.. تصرخ.. تتألم.. تسقط فى وهدة الكلال متسائلة أين المصير؟

وبعد هذه هى الصورة التى أجلى لنا مـعالمها أستاذنا الجليل محـمود أمين العالم وهو يسير ويغوص برشاقه وأناقه فى عالم نجيب محفوظ، وهى صورة تشكل إضافة حقيقية إلى رصيدنا الفكرى والثقافى، كما أنها تعكس فكرا عميقا دقيقا لأستاذنا الجليل. فلا نملك أمام هذا الفكر الواعى العـميق والواضح، التـعليمى والتـثقـيفى الا أن نحنى الـرءوس إجلالا وإعجابا يدفع على ألسنتنا عبارات تدعو له بطول البقاء ووفرة العطاء. إنه سميع الدعاء.